الفصل الخامس
الفلسفة اليونانية

حـــين التحدث عن الأمور التي تتعلق بالوحي والعقلانية في الفلسفة اليونانية، نرى أنه من الصعب أن نجد بين فلاسفة اليونان من ينطبق عليهم بحـــق وصـــف الـــنبي، الـــذي يجمع في نفسه ميزانا متعادلا من الوحي والعقلانية. ولكن سقراط يمكن أن يُستثنى من هذا.

لقد كان سقراط Socrates (٤٧٠-٣٩٩ ق م) طرازا فريدا في ذاته، شـــغل مكانا متفردا في تاريخ الفلسفة اليونانية، التي لم تذكر أحدا سواه يســـتحق أن ينـــتمي إلى ذلك الطراز. ولا بد بطبيعة الحال أن يكون قد ســـبقه وأتى بعده الكثير من الأنبياء، ولكننا لا نعلم عنهم شيئا سوى ما يمكـــن اســـتنتاجه من بعض الأقوال المنسوبة لسقراط نفسه. فمثلا.. من المعروف قوله إنه ليس الوحيد الذي تلقى الوحي من الله تعالى، فقد سبقه في ذلك العظام من الرجال الذين كانوا يسعون مثله من أجل الحق. وأيضا ورد عـــنه أنه حذر أهل أثينا من أن يقتلوه، وإلا فلن يروا رجلا مثله مرة أخـــرى، إلا إذا شاء الله تعالى أن يهدي أهل أثينا إلى طريق الحق بإرسال من يماثله.

وســـوف نخصـــص معظم هذا الفصل للحديث عن سقراط.. وعما كـــرّس نفســـه للدفـــاع عـــنه، لأنه كان مثالا للتوازن التام بين الوحي والعقلانـــية، غير أنه من المستحيل أن نغفل ذكر أفلاطون وأرسطو عندما نـــتحدث عن الفلسفة اليونانية. لقد كانوا جميعا بحق أول من استحدث صـــيغة جديدة في الفلسفة صارت صيغة مستديمة، غير أنه من المؤكد أن كـــلا مـــن أفلاطون وأرسطو يدين بالكثير من العظمة التي نالها لأستاذه

الفاضل.. سقراط.

لقـــد كان سقراط هو الذي أدخل عناصر المعرفة والحقيقة والعقلانية إلى المناقشات الفلسفية الجارية في ذلك الوقت. وهو حتما ويقينا قد فعل ذلك.. حتى إن بعض من كتبوا عن تاريخ حياته، وأسهبوا في تحليل سيرته الذاتـــية، وصفوه بأنه أتى إلى الأرض من السماء بفلسفات سامية رفيعة. ونحن نرى أن هذا الوصف صحيح، فإن الثرثرات الفلسفية للسفسطائيين مـــن قـــبله كانـــت بالتأكيد من لدن رجال الدنيا. لقد كانت المعرفة، والحقـــيقة، والعقلانـــية، هي التي رفعت الفكر الإنساني إلى أسمى المراتب الجلـــيلة، وإلى أعـــلى الدرجـــات الرفيعة. ولذلك.. ورغم أن أرسطو وأفلاطـــون قـــد تركا لنا ميراثا جليلا غنيا من البحوث الفلسفية القيمة، فليس هناك ما يماثل التأثير النبيل الدائم لسقراط وكماله، الذي شارك في خلـــق أفلاطون وأرسطو. ولن يكون تناولنا لفلسفات أرسطو وأفلاطون سوى أن نقدم لمحة لمجرد التعريف بها فقط.

إن كـــلا مـــن أفلاطون وأرسطو جعل الأولوية للعقل في فهم أمور ونظـــام العـــالم. مـــا هي العلاقة بين العقل والعالم المادي؟ ما هي كيفية الوصـــول إلى المعرفة؟ وما هي الحقيقة الأبدية؟ لقد قدم هذان الفيلسوفان العظيمان آراءً متباينة في الإجابة على هذه الأسئلة.

فعند أفلاطون.. لا يصح اعتبار المدركات أو المفاهيم المستخلصة من العـــالم الظاهـــري هي الحقيقة الكاملة، لأن الدراسة الســـطحية لظواهر الأشياء لا تكفي لتحصيل المعرفة الحقيقية عن بواطن الأشياء. كان أفلاطون يؤمن بأن في جوهـــر كل شيء ظاهر.. يتوارى عالم عميق من المعاني لا يمكن الوصول إليه بمجرد تحليل ظواهره.

PLATO
أفلاطون

وكان من رأي أفلاطون كذلك أن هناك وجودا لعـــالم غـــير مرئي، يحكمه كائن أعظم مُدرك، يعمل

تحـــت إمرته العديد من القوى للحفاظ على نظام الخلق كله. ومع ذلك يـــبدو أن أفلاطون لم يكن يؤمن بأن الوحي يؤدي دورا في توفير المعرفة عـــن المجهول. فهو يرى أنه من الممكن الحصول على المعرفة الحقيقية من خلال التفاعل بين العقل والفكر المتأمل. ويرى أن هذا التفاعل بين العقل والفكـــر يمكن أن يؤدي أحيانا إلى نتائج رائعة.. عجيبة وغريبة في بعض الأحـــيان. وقد ينتج عن حصيلة هذه العملية قفزات واسعة للمعرفة بدلا من التقدم البطيء خطوة فخطوة. وبهذا تظهر إلى الوجود أفكار جديدة، غـــير أنها ترتبط دائما بعمليات التفكير لدى الإنسان. وتتوقف قيمة تلك الأفكار، حسب رأي أفلاطون، على نوعية ومستوى فكر العقل المتأمل.

ويرى أفلاطون أن العقلانية تقتضي إجراء بحوث عميقة لسبر أعماق جميع طبقات الظواهر الطبيعية. وبترتيب البيانات التي يتم الحصول عليها مـــن هـــذه البحوث بشكل عقلاني منظم.. يمكن للإنسان الوصول إلى الحقيقة. وفي رأيه:

> "حيـــث إنـــه يوجـــد في الإنســـان ما يشبه الجذوة الربانية، فإنه.. بعد الاستعدادات اللازمة.. يستطيع أن يسلط أنظار عقلانيته على حقائق العالم غـــير المرئي، وفي ضوء هذه الحقائق يتعرف على ما هو حق، كما يعرف أيضا كيفية السلوك الصحيح. وهو لن يصل إلى هذه النتيجة بسهولة، إذ أن الحصول عليها لا يقتضي جهدا فكريا عظيما فحسب، بما في ذلك من تحديات متواصلة لكل المفترضات، بل يقتضي الانصراف تماما عن كل ما في الحياة من أمور حسية أو حيوانية. وبالرغم من ذلك.. فإن الإنسان لا يبلغ هدفه إلا شكليا من حيث المبدأ، ومن يصل إليه يستطيع أن يستعمل أهم عضو من ذاته بأفضل الوسائل المتاحة لـــه"[1].

وعـــلى هـــذا كان من رأي أفلاطون أنه من الممكن الحصول على المعرفة باستعمال موهبة دقة الملاحظة والعقلانية فقط، بالإضافة أحيانا إلى مســـاعدة من قوة الحدس والتأمل. والحقيقة هي معرفة يتم التوصل إليها

نتـــيجة لهـــذه الممارســـة. وباختصار.. فإن أفلاطون كان يرى أن العالم الظاهـــري لـــيس إلا واجهـــة، بينما الحقيقة التي تبقى مختفية وراء تلك الواجهة يمكن أن تكون مختلفة تماما عما هو منظور. وهذا يعني أنه مهما بذلـــنا مـــن جهد فإننا لن نستطيع أن ندرك تماما طبيعة أي من الحقائق الظاهـــرة، لأن ظواهر جميع الحقائق والأشياء دائمة التغير، وعلى هذا فإن مـــا يلحظه المرء لشيء من الأشياء في وقت من الأوقات قد يختلف عما يلحظه لنفس الشيء في وقت مختلف.

"كان أفلاطون يرى أن المثال هو الغاية المتوخاة.. إنه هدف غير محسوس يقاربـــه المحســـوس، فإن المثلث التام المتكامل بالنسبة للمختص في علم الهندسة 'لم يكن أبدا على البحر أو على الأرض'، رغم أن جميع المثلثات تحتويه بشكل أو بآخر. فقد كان يعتبر أن متخيلات الأشياء أكثر مماثلة للحقيقة من محسوسات الأشياء.. التي هي ظلال لها. وكان يرى أن على الفيلسوف أن ينفذ إلى تلك الأعماق الخفية لكي يرى بعيون عقله كيف تتشـــابك وترتبط بعضها مع بعض. فعند أفلاطون كانت هذه الأعماق وجوهـــرها هـــي التي تُشكل وتخلق كَوْنا منظما، وهو في نفس الوقت كون أزلي كامل، ولا يُدرك إلا بالعقل".[٢]

ARISTOTLE
أرسطو

على العكس من أفلاطون.. كان أرسطو يعطي أولوية للحقيقة الظاهرة. فمن رأيه أن أي فهم يكتسبه الإنسان في أي لحظة، أو مرحلة معينة، يجب أن يُعتبر هـــو الحقيقة. ويبدو أن العالم الظاهري كان بالنسبة لأرســـطو هو الحقيقة الأزلية. وقد اقتنع أرسطو أيضا بوجـــود مثالـــيات تـــتجه إليها "الأشكال الطبيعية المختلفة". وعلى النقيض تماما من أفلاطون.. كان أرسطو يرى أن المادة هي حقـــيقة أزلـــية مســـتقلة، كما كان من وجهة نظره أنه ليس لكائن مدرك خـــارجي أي دور في حـــركة الارتقاء المستمر، بل كان يعتبر أن هذا النمو

يعتمد فقط على الفطرة الطبيعية الكامنة في المادة نفسها.

غـــير أن هذا لا يعني أن أرسطو لم يكن يؤمن بالله، الخالق، بل على العكـــس.. كـــان يؤمن بكائن أعظم مسؤول عن كل سلسلة الأسباب والمسببات، ويمكن اعتبار أنه هو الأصل الأول لكل سبب. وعندما نتتبع فكرة الإله عند كل من أرسطو وأفلاطون وسقراط.. سوف نلحظ تغييرا تدريجيا في مفهوم كل منهم.

يـــبدو أن ســـقراط كان على صلة شخصية قويمة بالكائن الأعظم، وكانـــت شخصيته تتسم بنفس الصفات التي يتحلى بها أنبياء ورسل الله تعـــالى. كان أفلاطون يمثل الجيل الأول من تلاميذه الذين كانت تملؤهم الـــروح الســـقراطية. وكان الطابع الروحاني يبدو بوضوح في مناقشاتهم الفلســـفية والعلمية. ولكن في المرحلة الانتقالية بين أفلاطون إلى أرسطو، فإننا نشهد انحطاطا وضعفا تدريجيا في فكرة أن الله تعالى يقوم بدور حي وفعال في ظواهر الطبيعة. إذ لا نرى في أرسطو أي أثر يدل على أنه كان يؤمن بوجود أي شكل من أشكال الاتصال بين الله والإنسان.

ورغم أن فكرة الحقيقة الأزلية ليست مذكورة بشكل جلي في فلسفة أرســـطو، غير أن التحليل الدقيق لأعماله تشير إلى وجود انطباع غامض لديـــه عـــن الحقيقة الأزلية. هذا الانطباع يتصل بالحركة الدائمة للمادة ونـــزوعها الطبـــيعي للـــتطور والارتقاء نحو الحالة المثالية. وحسب هذه الفلسفة.. فإن المادة تأخذ شكلا مثاليا كانت دائما ترتقي نحوه.

لقـــد صار واضحا لأرسطو أن ما يراه المرء في لحظة من اللحظات، يمكن أن يُعتبر واقعا في تلك اللحظة. والنتيجة التي تُستخلص من الحقائق الـــتي يجمعهـــا العقل تُسمى معرفة، والمعرفة حين تثبت صحتها من زوايا متعددة ووجهات نظر متباينة هي التي يمكن أن تُعتبر حقيقة.

ويقـــف أرسطو في موقف خاص بين الفلاسفة الأولين، بسبب تأثيره الدائـــم غير المنقطع على كثير من مراحل الفكر الفلسفي. وحتى اليوم لا

يوجد فرع من فروع الفلسفة يخلو من أثر هيمنة فكر أرسطو.

ويمكـــن أن نخـــتم بالقول إن بين فلاسفة اليونان، حتى عندما كانوا يؤمنون بالله تعالى، لم يكن الوحي يُذكر بالذات باعتباره الوسيلة الجوهرية لانـــتقال المعرفة من لدن الله تعالى إلى الإنسان، وإنما كانت العقلانية.. في تـــزاوج مع التأمل والملاحظة في الدراسة الإنسانية.. هي كل ما كان يُعتبر أكثر الوسائل فاعلية للحصول على المعرفة، والوصول إلى الحقيقة.

ولا تُغطـــي هذه العجالة المختصرة عن الفلسفة اليونانية جميع كبار الفلاســـفة اليونانـــيين، الذين تركوا بصمات لا تُمحى على تاريخ الفكر الإنساني. فإن الغرض الرئيسي من هذه الصفحات هو تقديم عرض مختصر لموضـــوع العقلانـــية، والوحي، والحقيقة، كما هي موجودة في أعمال فلاســـفة اليونان، التي باتت كلماتهم وشهرتهم أبدية، وهنا يجب أن نقدم سقراط في صورته الكاملة.

إن سقراط، الأعظم والأنبل بين جميع فلاسفة اليونان، الذي لم يُعرف عـــنه أي تـــناقض بين أفكاره وبين أفعاله الطيبة الصالحة.. يُصوره بعض كُـــتّاب العصر الحديث في ظلال قاتمة من التناقض. سقراط، الذي كان أســـتاذًا متميزا للسلوك الأخلاقي، يُنظَر إليه اليوم بشكل عام من خلال مرآة أفلاطون، وزينيفون، وبعض الآخرين من معاصريهم. إن سقراط لم يـــنل بعد المقام الجدير به، و لم يُوضع في المكان الذي يستحقه. ويجب أن يُذكـــر عن زينيفون (Xenephon) أنه كان يؤمن بتعدد الآلهة كما كانت في ميثولوجيا أهل أثينا، ومن هنا كان هو المسؤول عن عزو الإيمان بتعدد الآلهـــة إلى سقراط. ولهذا كثيرا ما يجد المرء في كل ما كُتب عن سقراط الـــيوم أقوالا متناقضة، تذكر أنه كان يؤمن بآلهة متعددة كما كان يؤمن كذلـــك بإله واحد، الذي هو خالق الكون. ولكن إيمانه بإله واحد كان يـــبدو واضـــحا في كل عرق ينبض فيه بالتوحيد، ويفيض بروح العابد المخلص لله الواحد الأحد.

لقـــد كـــان إيمانـــه بالله تعالى ثابتا لا يهتز، وتحديه المعارض للتعدد الميثولوجي اليوناني كان صلبا لا يعرف المهادنة. وقد كرّس نفسه وحياته كلها للأمور المتعلقة بالفضيلة، والمعرفة، والحقيقة، وإزالة جميع التناقضات الموجـــودة في الإنســـان. إن حياته كلها كانت حربا مقدسة ضد الإثم، والشـــر، والجهـــل، والكبر، والعجرفة، والازدواج المتناقض في شخصية الإنسان. وكان يؤمن بالعدل المطلق، ومسؤولية الإنسان عن عمله، كما كـــان يؤمـــن بالحياة بعد الموت، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب. لقد ضـــحّى بحياته راضيا، وقدم روحه.. بكل سلام العقل وطمأنينة القلب.. عـــلى مذبح عقيدته وإيمانه بوحدانية الله تعالى، تماما كما يليق بنبي عظيم من أنبياء الله جل جلاله.

ولكـــن لم يكن هذا هو كل ما يتعلق بتضحيته العظيمة. إن المهادنة مع الكذب أو البهتان، أو حتى مع أقل ظلال الكذب والبهتان، لم يكن لها مكان بـــتاتا في طبع سقراط. إنه كان ليعطي حياته بوجه باسم بشوش، رافضا أي ضـــغط عليه من المجتمع لكي يغير أدنى أمر من معتقداته، حتى ولو كان ذلك الضـــغط هـــو الـــتهديد بالموت. لقد كان هو ذلك الفيلسوف النبي اليوناني العظيم، الذي يوصف.. في تناقض عظيم.. بأنه "أبو الفلسفة الغربية".

إن كـــل ما هو مشترك بينه وبين فلسفات الفلاسفة الغربيين، هو في الواقع الغياب الكامل لأي شيء مشترك بين الطرفين. فإن فلسفته تتلخص في الطهـــارة، والفضـــيلة، والتواضـــع، والعدالة المطلقة، والإيمان الراسخ بتوحيد الله تعالى، ومسؤولية الإنسان في هذا العالم وفي العالم الآخر. فهل يمكن أن يكون سقراط أبا لفلسفات ديكارت وهيجل وإنجلز وماركس؟ إن كـــان ذلـــك صحيحا.. فلا بد أن جميع جينات أبوته قد أزيلت تماما بفعـــل عوامـــل الزمن. فهل يمكن اقتفاء آثار فلسفاتهم التي تمحو وجود الأخلاقـــيات لتقودنا.. بشيء من الواقع والعدل.. إلى فلسفة سقراط التي قوامها الأخلاق؟ كلا، وكلا بكل يقين!

لقد كان بذاته عالَما يختلف عن كل العوالم، إذ كان ينتمي إلى عالم الأنبـــياء. فكان يؤمن بالرؤى المنبثقة من الله تعالى، وكان يؤمن بالوحي، وكـــان يؤمن بأنه لا توجد معرفة جديرة بالثقة إلا تلك التي ينعم بها الله تعالى نفسه على الإنسان.

لقد أُسندت إليه مهمة إبلاغ الرسالة الإلهية إلى أهل اليونان. وعنده.. لم تكـــن هذه الحياة سوى مرحلة تحضيرية للحياة التالية، وكانت النفس الإنسانية هي التي تحظى لديه بالاهتمام، إذ كانت هذه النفس هي التي من المقدر لها أن تتحرر وتنتقل إلى العالم الآخر. كانت هذه هي فلسفته، وإن شـــئت.. تستطيع أن تسميها حكمة إلهية، ولكنها حتما لم تكن فلسفة دنيوية علمانية كما يُصورها المثقفون في العصر الحديث.

وكـــم بُذلت من محاولات متكررة لانتزاعه من بين كوكبة الأنبياء، واعتـــباره مجرد فيلسوف من الفلاسفة. إن الكثير من الكُتّاب في العصر الحديـــث.. ربما يكونون قد بلغوا من العلم والثقافة شأنا كبيرا.. ولكنهم في تشويش واضطراب بائس فيما يتعلق بحقيقة شخصيته، إذ أنهم سَوّدوا وجوه صفحات لا عدد لها من كتب كثيرة في محاولة وضعه في مكان لا ينتمي إليه.

وبعـــض مـــن مشاهير العلماء ذائعي الصيت، حاولوا بجهد كبير أن يُـــزيلوا عـــنه تناقضا تصوروه، ولم يكن لـــه وجود في الحقيقة والواقع. وكـــان التناقض في رأيهم هو إيمانه بالوحي الإلهي، واقتناعه بالعقلانية في نفـــس الوقت. ولو كانت العقلانية ووحي الله يُشكلان أي تناقض، فقد اشترك في هذا التناقض جميع أنبياء الله عز وجل، ولم يكن سقراط استثناء من ذلك. فكل نبي، وكل رسول، وجميع مؤسسي الأديان العظام، كانوا يؤمنون بالعقلانية وبالوحي الإلهي في نفس الوقت. وكانوا يتمسكون بهذا الإيمان بكل قوة وثبات، ولم يروا أي تناقض بتاتا بين الاثنين. ولو كانوا قد رأوا أي تناقض بين العقلانية ووحي الله.. فإن أمانتهم المتأصلة فيهم..

كانت تحتم عليهم أن ينبذوا فكرة الإله أو فكرة العقلانية، أو ربما كلتيهما معـــا.. ولكن لم يكن هناك أي تناقض لديهم على الإطلاق بين العقلانية وبـــين الإله. وعلى ذلك.. فلا بد أن هؤلاء الذين رأوا تناقضا في أفكار ســـقراط وفي قناعاته.. لا بد أنهم هم أنفسهم كانوا يُعانون من ازدواجية الرؤية، وعليهم أن يُعيدوا قراءة سقراط ودراسة ما كُتب عنه في المصادر الأصيلة مرة أخرى، وسوف يكتشفون في شخصه إنسانا جديدا، لا يمكن نزعه أو فصله عن تمسكه الشديد بالله تعالى وفلسفته العقلانية. ولا بد لهم مـــن تبين أن جُل ما كُتب عنه، يدور حول شغله الشاغل بأن الناس لا يلقـــون بـــالا ولا اهتماما بأهمية التمسك بالفضيلة، ولا يفهمون حقيقة معناها.

إن التـــناقض لـــيس في معتقدات سقراط، ولكنه بين صورة سقراط الحقيقـــية.. والصورة الباطلة التي أُقحمت عليه، والتي كانت هي المسؤولة إلى حـــد كبير عن تشويه بعض النصوص والتعبيرات الهامة الواردة عنه في الكـــثير من المصادر الأصلية. ولا بد من العثور على إجابة للسؤال عما إذا كـــان أحـــد هـــذه التعبيرات: (*arete*) يعني فعلا: "الفضيلة"، أو إذا كان يتضمن معنى دنيويا آخر. وفي رأي و.ك.س. غوثري (W.K.C. Guthrie):

> "إننا نعلم الآن أن كلمة "الفضيلة" تضفي مفهوما باطلا للكلمة اليونانية (*arete*)، التي تعني في المقام الأول المهارة في القيام بعمل معين".[٣]

هـــذا في رأي غوثري هو ما هز مشاعر أهل أثينا "العمليين". وكلمة "العمليين" تكشف تناقضا فاضحا في مفهوم غوثري لكلمة (*arete*)، إذ لو كان تعريفه للكلمة صحيحا.. لكان سقراط هو الأحق بأن يوصف بأنه أكثر الناس عملية في أثينا كلها، وليس منتقدوه الذين لم يهتموا سوى بـــ "المقدرة السياسية" و "الالتزامات الأخلاقية".

> "أحـــد الأمـــور عن سقراط.. التي كانت تثير سخط مشاعر أهل أثينا العملـــيين وذوي الجاه.. هو أنه كان يصر على أن يتحول بالحديث إلى بعـــض الـــناس البســـطاء والمتواضعين ممن لا قيمة لهم، كأمثال صانعي

الأحذيـــة والنجّارين، كلما كان ما يريدون أن يعرفوه، يتعلق بما يُكَوّن القدرة السياسية، أو ما إذا كان هناك ما يسمى بالالتزام الأخلاقي".[٣]

والواضـــح من هذه العبارة أن سقراط في نظر غوثري لم يكن يهتم بتاتا "بالفضيلة" باعتبار أنها أمر يختص بالأخلاقيات، إذ كل ما كان يهتم به في الواقع هو إتقان الصانع لأداء مهنته، وفهمه للغرض الذي يعمل من أجله. فالصانع لا بد له أن يفهم مثلا ما هو السلّم النقال، وما هو الغرض الذي من أجله يُصنع هذا السلّم. هذه هي الفلسفة العلمانية لسقراط كما يـــراها غوثـــري، الذي لم ير فيه سوى الانشغال بغرض ومهنة الصانع. وهكذا كان تصوره لسقراط وهو يجول في شوارع أثينا وطرقاتها، موجها كلامـــه للعوام من الناس، ليعلمهم كيف يبلغون ذروة الكمال في الفنون والمصـــنوعات. وبذلـــك فقـــد أغفل غوثري كلية القوة الدافعة الحقيقية لفلسفة سقراط، فلم يعترف له بأي اهتمام بالفضيلة والتقوى والورع.

إن هـــناك أمرا مؤكدا عن سقراط، وهو أيما كان العمل الذي انخرط فـــيه وانشغل به.. فقد كان هو (*arete*)، أي الفضيلة. وإذا اتهمه البعض بأنه لم يكن يهتم بالفضيلة، فهذا يعني أن كلمة (*arete*) لديهم لم تكن لها أيـــة علاقة بالمفاهيم الأخلاقية. وإننا لنعترض بشدة على هذا الاتهام الذي يوجهه من يكتب عن سقراط، ونعتبر أنه خطأ فاحش، فإن مجتمع أثينا لم يلق باللائمة إطلاقا على سقراط لأنه لم يتحدث عن الأخلاقيات، بل على العكـــس من ذلك تماما.. كان أهل أثينا يلومون سقراط بسبب انخراطه وتمسكه الزائد بما كان يعتبره هو من الأخلاقيات التي غابت عن مجتمعه، حتى إن الناس كانوا يعتبرونها إفسادا لأخلاق شباب ذلك المجتمع في أثينا. وهكـــذا.. فقـــد جرد غوثري سقراط من كل مقوماته كمعلم أخلاقي بـــتجريد كـــلمة (*arete*) مـــن كـــل مضمون أخلاقي. وبهذا الأسلوب المنحرف.. حاول غوثري أن يغير حقائق التاريخ، ولكن كل ما نجح فيه هـــو خلـــق منظور مختلف بين شخصية خيالية لسقراط، وهي تلك التي

فرضها غوثري عليه، وبين الشخصية الحقيقية التي كان يتمتع بها سقراط. فإن أي إنسان يعرف سقراط، كما قدمته كتابات أفلاطون وبعض الأفراد الآخرين في زمانه، لا يمكن أن يقبل هذه الصورة التي تخيلها غوثري. فمن الحقائق المعروفة أن ما أسخط أهل مجتمع أثينا على سقراط لم يكن هو ما ادعـــاه غوثـــري، إذ كان سقراط يدعو لتوحيد الله تعالى، وخاض حربا مقدســـة ضـــد اللاأخلاقيات. لقد كانت هذه هي مهمة سقراط، وكان ذلك هو كل ما تعنيه لديه كلمة (*arete*). هذه هي الحقائق التي لا بد من فهمها فيما يتعلق بكلمة (*arete*).

وعلى العكس من غوثري.. فقد أصاب الكثير من العلماء في صحة تـــرجمة كلمة (*arete*) لتعني الفضيلة، بكل ما تتضمنه كلمة الفضيلة من معـــان. وحيـــنما كان سقراط يتحدث عن بعض الأمور البسيطة، مثل الصـــناعات والفنون أو طبيعة الآلات وكيفية عملها، ثم يتكلم أيضا عن الغـــرض الـــذي من أجله تُصنع كل آلة، أو حينما يشرح كيفية تحقيق الغـــرض من كل فن، فإنه بكل تأكيد كان يتحدث بأسلوب رمزي ذي مغزى، يشير دائما إلى الإنسان وإلى الناس. وإلا.. فإنه ما كان لينكر على أصـــحاب الحِرف معرفتهم بفنون حِرفهم، وما كان ليدينهم بجهالة وبغير ســـبب. إن ما كان يتحدث عنه هو جهل الإنسان في إدراك طبيعة العلم الإلهي، الذي يكمن في الأعماق تحت سطح كل وظيفة يقوم بها الإنسان، ومـــع ذلك يظل الناس يجهلونه ولا ينتبهون إليه. وبسبب هذا الجهل.. لا يســـتحق الإنسان أن يُعتبر إنسانا، تماما كما لا يستحق الصانع أن يُعتبر صـــانعا.. إن لم تكـــن لديه المعرفة الكاملة بكيفية الصنع والغرض الذي يُستمعل فيه هذا المصنوع. ذلك هو الجهل الإنساني الذي جاهد سقراط لكي يلفت نظر الناس إليه.

لقد كان سقراط يؤمن بأن الناس لا يستطيعون أن يصلوا إلى حقيقة الغـــرض الإلهي من الخلق بالاعتماد المجرد على مجهوداتهم الخاصة، فهم لا

يعـــلمون كيف يشكلون حياتهم لتتفق مع الغرض الذي خُلقوا من أجله. إنهـــم لا يعلمون عن ذلك شيئا، رغم أنهم يدّعون دائما أنهم يعلمون كل شـــيء، وهذا هو ما كان يعتبره جهلا مطبقا. إن عملية اكتشاف وتحقيق الغـــرض الذي من أجله وُجد الإنسان، هو ما كانت تمثله كلمة (*arete*). ولكن هذا لا يمكن التوصل إليه إلا بعد التواضع الكامل من قِبَل الإنسان واعـــترافه التام بجهله. وحينذاك فقط يكون الإنسان على استعداد لتلقي العون من الله تعالى، وأن يرشده خطوة بخطوة لينقله من الجهل إلى المعرفة. فالمعـــرفة الحقيقية.. والوحيدة.. لدى سقراط هي ما كانت من وحي الله عز وجل، وكل ما عدا ذلك فهو جهل وجهالة.

وهذه بالضبط هي أيضا رسالة القرآن الكريم، التي تُرجِع المعرفة كلها إلى الله ﷻ، حتى إن الملائكة الكرام يُقرّون بجهلهم أمامه حيث يقولون:

﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ (٢ البقرة:٣٣)

ويكرر القرآن المجيد تذكير الناس بأن الإنسان لا يمكن أن ينال معرفة حقيقـــية بالصـــراط المســـتقيم.. إلا بالاعتماد التام والكامل عليه ﷻ، والاستعانة به دائما لهداية خطواته على ذلك الصراط:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٥-٦)

وهذا هو نفس الدرس في التواضع الذي قدمه سقراط بكل قوة، مُبينا أن الإنسان لا يستطيع أن يحصل على المعرفة بدون أن يعترف بجهله، وبغير أن يدرك أنه في حاجة إلى العون الإلهي لكي يهديه الطريق المستقيم.

وهكذا.. وبأسلوب رمزي ذي مغزى.. كان سقراط يشير دوما إلى الإنسان وهو يتحدث عما يبدو في الظاهر أنه يتحدث عن صاحب صنعة

افــترض وجوده. فقد كان يرى أن الإنسان يعاني من غرور أوهامه بأنه على علم ومعرفة، وما دام الإنسان يعتبر نفسه أنه على علم ومعرفة، فلا يمكــن لــه أن يدرك مدى حاجته إلى العلم والمعرفة. وهذه الرمزية التي اســتعملها سقراط هي التي ساعدته على تحقيق مهمته النبوية، التي كان غرضها إيقاظ بني قومه لإدراك الغرض الأخلاقي والروحاني والرباني من خلق الإنسان.. ذلك الغرض الذي لا يمكن فهمه، ولا الوصول إليه، بغير مدد وعون من الله تعالى.

إن معظــم الــناس يــتحركون مثل قطع الشطرنج، التي لا تدرك لماذا تتحرك، ولا تعلم متى تتحرك، ولا تدري شيئا عن العقل المدبر وراء اليد التي تحركها. وهؤلاء الغافلون لا يستطيعون أن يدركوا واجباتهم تجاه الخالق ولا تجــاه المخلوق. ولتبيان خطورة تلك الحال التي تردّى فيها الإنسان.. كان سقراط يُذَكّر الإنسان بالحياة بعد الموت، حيث يحاسَب في النهاية على كل أعمالــه أثناء حياته على هذه الأرض. وهذه الحياة بعد الموت، التي تحدث عــنها سقراط، ليست بكل تأكيد هي ما يتحدث عنه الفلاسفة العلمانيون. إنهــا المهمة الرئيسية والشغل الشاغل لأنبياء الله تعالى. إننا نتمنى فقط لو أن غوثــري كــان قد تذكر ما كتبه هو بنفسه عن شخصية سقراط في نفس الكــتاب. والكــلمات التالية لها مدلول خاص.. وهي الكلمات التي ذكر غوثري أن سقراط قد نطق بها في اللحظات الأخيرة قبل موته:

"إنه من المحتمل أن يكون الكثيرون.. إن لم تكن الكثرة من الناس الذين لم يتقبلوا سقراط.. لم يكونوا يريدون أن يروه يموت، وكانوا يتمنون لو كان قد أمكن إقناعه بمغادرة أثينا...".[٤]

ولقد رفض سقراط هذا الاقتراح بشدة وقال ردًا عليه:

"... إنه عاش كل حياته متمتعا بالمزايا التي تكفلها قوانين أثينا لرعاياها، والآن.. حيث إن نفس هذه القوانين قد قضت عليه بالموت، يكون من قبــيل نكران الجميل ومن غير العدل من جانبه أن يتجنب ما قضت به هــذه القوانين. وبالإضافة.. من يستطيع القول إنه لن يذهب إلى وجود

أفضل كثيرا من ذلك الذي عرفه من قبل".[٤]

إن الكثير من العلماء المشهود لهم قد بحثوا أيضا المعنى الحقيقي والترجمة الكاملة لكلمة (*arete*). وأحد هؤلاء البارزين من مشاهير العلماء هو جريجوري فلاستوس (Gregory Vlastos)، الذي رفض بشدة محاولات اعتبارها مجرد تعبير يختص بالصناع. وبعد أن شرح باستفاضة الكلمة اليونانية في مختلف معانيها المحتملة، راح يؤكد على أن معنى الكلمة (*arete*) في الاستعمال السقراطي يجب أن يتواءم مع كلمة الورع والفضيلة في كل صورة من صور الخير التي يمكن أن تحملها هذه الكلمة، فيقول:

"إن أي شك لا يزال قابعا في أذهان القراء، فيما يتعلق بهذه النقطة، سوف يتبدد تماما بتوجيه أنظارهم إلى حقيقة أنه كلما جعل سقراط الفكرة العامة تحت البحث الدقيق – كما فعل حين ناقش موضوع إمكانية تعليم (*arete*) في الـ (*Protagoras*) والـ (*Meno*) – فقد ذكر بغير أي تردد أو تحفظ أن مكوناتها أو أجزائها (μρια, μερη) هي خمس صفات، وهي باتفاق الآراء: اللفظ اليوناني الذي يدل على أفضل الأخلاق الحميدة: (*andreia*) أي (الرجولة، والشجاعة)، و (*sophrosyne*) أي (ضبط النفس، والاعتدال)، و (*dikaiosyne*) أي (العدالة، والتقوى)، و (*hosiotes*) أي (الورع، والقدسية)، و (*sophia*) أي (الحكمة)".[٥]

وهكذا كان فلاستوس عقلانيا ومنطقيا جدا في موقفه أنه من الضرورة بمكان بحث المعنى الأساسي المقصود لكلمة (*arete*) الذي بينه سقراط بنفسه وبإصرار دائم.

وقد أشار كريستوفر جاناواي (*Christopher Janaway*)، وهو أحد العلماء الكبار، إلى هذا المعنى المقصود لكلمة (*arete*) حين ذكر أن سقراط:

"...كان مهتما بموضوع علم الأخلاق، وخاصة بتعريف الفضائل: (العدالة، الحكمة، الشجاعة، الورع، وضبط النفس). وهذا هو سقراط الذي قدمه أفلاطون في المحاورات القديمة، وهو ما جعل سقراط يصف به نفسه في دفاعه عن نفسه المعروف باسم الأبولوجي Apology".[٦]

"إن بيـــت القصيد الأساسي في المبادئ الأخلاقية لدى سقراط هو اعتباره أن الفضـــيلة هـــي المعرفة؛ وكل الفضائل تتلخص في فضيلة واحدة هي: فضيلة السعادة...

ويؤمن سقراط أيضا أن أي إنسان يتحلى بمعرفة الخير والشر.. لا يمكن أن يفـــتقر إلى أي من الفضائل، إذ أنه بهذه المعرفة لا بد أن يكون أيضا شـــجاعا، وقدوســـا، وعادلا، وضابطا لنفسه. وأخيرا.. فقد كان على قناعة بأن الإنسان الفاضل لا بد وأن يكون أكثر سعادة وأعظم خيرا ممن يفتقر إلى الفضيلة".[٧]

ونحن نتفق تماما مع مفهوم جاناواي للمبادئ الأخلاقية لدى سقراط.

إن مـــا يصفه سقراط هو قانون يتعلق تعلقا شديدا بالطبيعة الإنسانية، وعـــلى ذلـــك يجب أن يكون مقبولا جملة وموضوعا. والمعرفة بأن بعض الشجيرات والحشائش الشائكة هي المخبأ والملاذ الوحيد للاختفاء من خطر افتراس حيوان متوحش.. هذه المعرفة سوف تجعل.. بكل تأكيد.. أي إنسان سليم الفكر يفضل اختيار الأذى الأقل تأثيرا الذي ينتج عن جروح الأشواك. وما دام في مأمن من أذى الوحش المفترس، فإن الإحساس بالمعاناة التي يشعر بهـــا مـــن جـــراء جروح الأشواك، سوف يبدو لـــه.. بالمقارنة.. إحساسا بالســـعادة والســـلامة. وبينما لا ينكر سقراط أن المرء الذي يتحلى بالمعرفة الحقيقية يمكن أن يعاني من الآلام الجسدية، فإن ما يؤكد عليه هو أنه أيا كان العمـــل الذي يعتبره الإنسان العالم مناسبا.. لهو العمل الوحيد الذي يجد فيه الطمأنينة والسلام. وهذا صحيح اليوم أيضا كما كان صحيحا آنذاك. وهذا ما يُفسر تفضيل الأناس الربانيين لخيار المعاناة الذي يجدون فيه السعادة، فعند هؤلاء يكون فقدان فضل الله وخسران نعيم قربه.. أمرا شديد الإيلام بشكل لا يُحتمل. وكذلك.. فإن الأفاضل من الناس الذين يحرصون على كرامتهم، يفضـــلون المـــوت في "ألم".. عـــن الحياة في "نعيم" يقتضي منهم التضحية والتـــنازل عـــن مبادئهم، وهم بلا شك يموتون في "سعادة".. لأنهم يحققون انتصـــارا أخلاقـــيا. إنهـــم يتقبلون المعاناة والآلام الجسدية.. وتتراقص على

شـــفاههم بسمة الرضا.. مفضلين ذلك على الخزي الروحاني، الذي يكون بالنسبة لهم أكثر معاناة وأشد إيلاما.

لقـــد خصص "فلاستوس" فصلا طويلا بعنوان: "الورع السقراطي" لإزالة التناقض المظنون في أفكار سقراط وتجاربه. إنه فصلٌ مكتوب بحنكة العـــالم، غـــير أن أسلوبه تبريري.. حاول فيه أن يبرهن على عدم وجود التـــناقض. لقـــد كانت فلسفة سقراط تتميز بالعقلانية دائما، كما رآها فلاســـتوس، ولكن تجربة الوحي لديه وإيمانه بوجود كائن أعظم.. يهديه ويرشـــده ويقـــود خطواته.. هو التناقض الذي كان ينبغي إزالته في رأي فلاستوس. ومن أجل تحقيق ذلك.. يذكر قول سقراط نفسه لتوضيح هذه النقطة. ومن المعروف أن سقراط قد قال العبارة التالية انبثاقا من سلوكه وأسلوبه العقلاني الكامل:

"لـــيس الآن ولا للمرة الأولى، ولكنني على الدوام إنسان لا أقتنع بشيء في شخصي سوى ما يبدو لي الأفضل عندما أتعقله (λογιξομεμφ)".[٨]

ورغـــم تأكـــيد سقراط على أهمية العقلانية.. فقد بدا لفلاستوس أنه يعتقد في الخرافات حين يتعلق الأمر بتجاربه الشخصية، لذلك كتب قائلا:

"ومـــع ذلك فهو يلتزم بشدة بطاعة الأوامر التي تصله عبر قنوات خارقة للطبيعة".[٨]

ولكي يؤيد فلاستوس وجهة نظره نراه يذكر ما قاله سقراط خلال محاكمته:

"لقـــد فعلت هذا لأني أُمرت به، كما ذكرت، من قِبَل الإله عن طريق الوحـــي، وعـــن طريق الرؤى، وعن طريق جميع الوسائل الأخرى التي بواسطتها كانت الأوامر الإلهية تُكلف أحدا أن يفعل شيئا".[٨]

وبعـــد التسليم بهذا.. كتب فلاستوس مقالا طويلا لتبرئة سقراط مما اعـــترف بـــه بنفســـه عن تجاربه الروحية التي مر بها. ومن خلال منطق متشابك، تَوَصل أخيرا إلى أن سقراط لم يكن يؤمن بالفعل بما اعترف به شخصـــيا. ومع ذلك.. وبالرغم من مجهوده العلمي، فقد فشل فلاستوس في تحقيق هدفه. وإذا أعَدنا قراءة ما ذكره فلاستوس في الاقتباس المذكور

عاليه والذي يبدأ بالجملة:

"لقد فعلت هذا لأني أُمرت به...".[٨]

نلاحظ أن لفظ "الله" قد ذكره سقراط في صيغة المفرد *(وهو يُترجم إلى God بحرف G كبير في اللغة الإنجليزية)*، ومع ذلك فقد كتبه فلاستوس على أنه "إله" *(الذي يُترجم إلى god بحرف g صغير في اللغة الإنجليزية)*.

إن هذه العبارة التي ذكرها سقراط، والتي تتعلق بتجاربه الخاصة التي تمتع فيها بالرؤى والوحي الرباني، وبعض الوصايا والأوامر التي تلقاها بوسائل أخرى.. لهي عبارة قوية وواضحة تمام الوضوح، وتتفق كل الاتفاق مع تجارب الأنبياء عامة، حتى إنها لا تترك أي مجال للشك في أنها تعني تماما ما قصده بها سقراط. وهناك عدد كبير من الآيات القرآنية الكريمة تؤيد سقراط كل التأييد، حيث تتحدث عن جميع الأنبياء قبل رسول الله ﷺ الذين شاركوه جميع وسائل وأشكال الوحي الإلهي.

وبالإضافة.. فإن فلاستوس يبني نظريته في التناقض بإثارة التساؤل التالي:

"هل يحدو بنا هذا إلى اعتبار أن سقراط كان يعتمد على وسيلتين متفاوتتين للمعرفة فيما يختص بالآلهة، إحداهما عقلانية والأخرى فوق العقلانية، مما ينتج عنه أسلوبان متباينان للاقتناع.. أحدهما يمكن الوصول إليه عن طريق البرهان الانتقائي* eclectic argument، والآخر عن طريق الوحي الإلهي بواسطة كلام الآلهة والأحلام النبوية وما شابه ذلك؟" [٩]

إن الإنسان ليعجب حقا كيف يمكن أن يبني الخيال صورة من التناقض بين ما آمن به سقراط وبين ما مرَّ به من تجارب. ومن المعروف عنه، دون أدنى شك، أنه كان ينتقد ما يُسمى بالآلهة اليونانية، وكان يحط من شأن ما يوصف بأنه وحي من كلام الآلهة، ولكنه حينما تكلم عن

* الانتقائي هو من لا يتبع نظاما واحدا في الفلسفة، بل ينتقي كل ما يعتبره الأفضل في جميع الأنظمة. (المترجم)

تجربـــته الشخصية، لم يحدث أبدا، ولو مرة واحدة، أن سخر من الوحي الإلهـــي الذي كان يتلقاه، أو الرؤى الربانية التي كان يراها. إن فلاستوس لم يكـــن منصفا حين ذكر تعبير "كلام الآلهة" بعد أن ذكر تعبير "الوحي الإلهـــي"، إذ لا علاقـــة بين الاثنين. فإن الوحي الإلهي الذي تحدث عنه ســـقراط في الاقتباس السابق، لم يذكر ما يسمى بكلام الآلهة. لقد كان دائما وأبدا.. حين يتحدث عن تجربته الشخصية.. كان يذكر الله بصيغة المفـــرد (*God بحرف G الكبير وليس بصيغة الجمع gods*). وحينما كان يـــتحدث عن إلهام الشعراء، باعتباره هبة من عند الإله (أي god-given) فإنـــه كان يستعمل الأسلوب المجازي، و لم يقصد أبدا أن هذه الرؤى هي بالفعل من لدن الله تعالى (أي God-given)، وذلك كما قال:

"نعم.. إن ما يضعه الشاعر الملهَم في شعره هو شيء بديع، من عند الإله (أي god-given)، ولكنه ليس هو المعرفة – ولا يمكن أن يكون معرفة، لأنه عديم العقل".[١٠]

إن انـــتقاده للشعر، وقوله إنه "ليس هو المعرفة – ولا يمكن أن يكون معرفة، لأنه عديم العقل" يتفق تماما مع أسلوب التعابير الشعرية. ولا شك أن هناك نوعا من السحر في بعض الشعر، كما لو كان الله تعالى يتحدث على لسان الشاعر، ولكن الإنسان العاقل لا يفهم هذه المقولة حرفيا، ولا يأخذها مأخذ الجد. وحينما يصف سقراطُ الشاعرَ بأن به مسًّا إلهيًّا، فقد يكون في ذلك إشارة إلى الخرافات التي يؤمن بها أهل أثينا.. إذ يعتبرون أن بعـــض الناس بهم مس من الآلهة. ومثل هذه التعابير بعيدة كل البعد عن الأسلوب الذي يستعمله سقراط عن نفسه، فلم يكن به أبدا مس من الله تعالى، وإنما كان الله ﷻ يخاطبه كما يخاطب عباده المخلصين.

وهـــو يوضح بكل جلاء أن تجارب الشعراء ليست بالتأكيد من عند الله تعـــالى، رغـــم أنهـــا قد تبدو كذلك. ومهما كانت كفاءة وحذق الشـــعراء، فإن تجاربهم يمكن أن توصف على أحسن تقدير بأنها نوع من

إلهام النفس، ولكنها حتما ليست وحيا إلهيا. يقول سقراط:

"لقد أدركت على الفور أن الشعراء لا يتغنون بأشعارهم بسبب "المعرفة"، وإنما بسبب موهبة فطرية وفي حالة من إلهام النفس...".[١١]

وعلى أية حال.. إن الاستنتاج الذي توصل إليه فلاستوس من نفس هذا المقطع يؤدي بالقارئ إلى أن يطير صوابه، بدلا من الشاعر الذي وصفه بأنه طار صوابه حيث يقول:

"...حينما يكون الإله (god) قد تلبس فيه، يكون الشاعر قد طار صوابه (εκφρων...)".[١١]

ثم هو يُبرئ سقراط من اللاعقلانية حيث يقول:

"إن سقراط سلب أسلحة اللاعقلانيين التي تمكنهم من الاعتقاد بآلهة فيما وراء الطبيعة تتصل مع البشر بوسائل وعلامات فوق الطبيعة".[١٢]

ونحن بكل احترام نختلف معه بشدة، حين يفترض أن نفس المقولة تنطبق على التجارب الخاصة بسقراط. فبعد صفحتين فقط من استنتاجه الذي خرج به، يعترف فلاستوس بأن إله (God) سقراط يختلف عن بقية الآلهة، فيقول:

"وبسبب ما رأيناه سابقا، وخلاف الآلهة الأخرى، فإن إله سقراط إله طيب على الدوام، لا يمكن أن يسبب أي شر لأي شخص بأية وسيلة في أي وقت. وحيث إن خداع الإنسان هو نوع من الشر الذي يصيبه، فإن إله سقراط لا يمكن أن يكون كاذبا".[١٣]

وبالإضافة، نراه في نفس الفصل، ينسب بحق إلى سقراط نوعا من العبادة، يختلف تماما عما يسمى بعبادة أهل أثينا، التي يصفها بقوله:

"... إنها نوع من فن التبادل التجاري بين الآلهة والناس".[١٤]

كان من المحتم أن تُرفض عبادة أهل أثينا، لأنهم يجعلون الآلهة تعتمد عليهم بما يقدمونه إليها من هبات على مذابحها، ولكن "إله (God)" سقراط، الذي يشير إليه فلاستوس بطريق الخطأ بصيغة الجمع (gods):

"... ليس بحاجة إلى هباتنا، بينما نحن الذين نعتمد كليا على هباتهم

لنا..."[١٤٤]

ومـــن الواضـــح أن معاملة سقراط لعبادة أهل أثينا كان بسبب أنها موجهـــة لآلهة متعددة يستخدم لها لفظ الجمع، ولكن يجب أن نتذكر هنا أن كلمة إله (god) حين يستعملها سقراط في صيغة الجمع، لا تعني دائما آلهـــة أهل أثينا، التي هي من نتاج خيالاتهم. فالدراسة المستفيضة لسقراط تُـــبين أنـــه حين كان يستعمل لفظ آلهة (gods) فإنه كان يعني بها أحيانا الملائكـــة، أو أي شـــكل من أشكال الحياة الروحانية التي فوق الإنسان، ولكنها دون الله تعالى.

ومـــع ذلـــك.. فهو حين يتحدث عن تجربته الخاصة، فإنه ينبذ كلية استخدام صيغة الجمع، ويبدأ في الكلام عن إله واحد (One God).

"إنـــني أعتقد أنه ليس من خير جاء إليكم في هذه المدينة أعظم من هذه الخدمة التي أقوم بها لله" [١٥]

(لاحـــظ صيغة المفرد التي يستعملها لله تعالى فيما يتعلق بالمهمة التي كُلّف بها).

إن فلســـفته الدينية والسياسية كانت دائما في اتفاق مع الاتجاه العام للتعالـــيم السماوية، و لم يسجل التاريخ أن نبيا من أنبياء الله تعالى قد تمرد عـــلى قوانين البلد التي يعيش فيها، ولكن حين تتدخل الدولة في شؤون طاعـــة لله تعالى، فإن الأنبياء لا يترددون أبدا في مواجهة قوة الدولة دون أي خوف أو وجل، ويتبعون دائما أوامر الله ﷻ.

وهـــذه نفســـها هي فلسفة سقراط. لقد كان لديه ولاء تام للدولة، ولكن حينما تعارض ولاؤه للدولة مع طاعته لله تعالى، كان القرار الوحيد الـــذي اتخذه هو التضحية بالولاء الأدنى من أجل الولاء الأعلى، الذي لا يكـــون إلا لـــلخالق وحده. ولذلك فقد وجه كلامه إلى مجلس الشيوخ، الـــذي كـــان على وشك أن يدينه ويحكم عليه بالموت، وقال بكل عزة ووقار، وبصوت لا يشوبه أي خوف أو اضطراب:

"... يا أهل أثينا، إنني أحترمكم وأحبكم، ولكني أفضل طاعة الله (God) على طاعتكم، وما دامت بي قوة، وكان فيّ عِرْقٌ ينبض بالحياة، فإني لن أتوقف عن ممارسة وتعليم الفلسفة..." [١٦]

(لاحظ أن جويت (Jowett) يكتب دائما لفظ الإله God بالحرف G الكبير حيثما يربط بين الله تعالى وبين سقراط).

وحينما عرض أهل أثينا على سقراط أن يرفعوا عنه حكم الموت، بشرط أن يتوقف عن "إفساد" شباب أثينا، بتحريضهم على عدم الاعتراف بآلهة أثينا وطاعة إلهه، رفض سقراط على الفور وبشدة. وهناك حوار طويل عن هذا الموضوع بينه وبين ميليتوس (Meletus) المدّعي العام الذي كان يحاكمه. فقد أصر ميليتوس على أن عدم اعتراف سقراط بآلهة أثينا يعني الإلحاد التام.. الأمر الذي يستوجب الحكم عليه بالموت، رغم تأكيده على أنه يؤمن بالله الواحد. وهكذا كانت طاعة سقراط لله تعالى أعلى وأعظم من طاعته لقوانين أثينا. وقد تمسك سقراط بإيمانه، ولقي مصرعه من أجله، ولكن قبل موته أنذر أهل أثينا كما ينذر الأنبياء أقوامهم، وذلك من خلال الكلمات التالية:

"... لعلكم تظنون أنكم لا تخطئون في حق الله، وتستهينون بإنكاركم لفضله وذلك بإدانتي والحكم عليّ بالموت، فإنكم إذا قتلتموني فلن تجدوا مثيلا لي بسهولة..." [١٧]

وبعد أن قال هذا راح يدلل على براءته بمنطق لا يقبل الجدال، ثم أحكم في النهاية منطقه بأسلوب سوف يظل دائما شاهدا على مدى عظمته. ويذكر جويت بعضا من عباراته فيقول:

"... ومهما بلغت وقاحة أولئك الذين يوجهون لي الاتهام، فإنهم لن يجرأوا على القول بأني في أي وقت من الأوقات قد ابتززت مالا من أحد، أو حتى طلبت من أحد أن يدفع لي أجرا؛ فليس لديهم من يشهد عليّ بذلك.. بينما لدي أنا شاهد على صدق قولي.. فإن فقري يكفي أن يكون شاهدا على هذا". [١٧]

كذلـــك فقـــد استدل بمسلكه طوال حياته السابقة ليؤيد به أقواله، وليكون شاهدا أمينا على حقيقة موقفه الحالي.

وفي إشـــارة إلى واقعة سابقة، تثبت أنه كان الشخص الوحيد الذي كانت لديه الجرأة على التصدي لجبروت مجلس الشيوخ، أعلن قائلا:

"... إنني لم تهتز لي شعرة خوفا من حكم الموت، بل إن خوفي كله هو أن أرتكب إثما، أو أن أقوم بعمل شيء غير طاهر أو غير مقدس. إن هذه اليد الباطشة الظالمة لم ترهبني لتدفعني إلى الوقوع في خطأ ما..." [١٨]

وهكذا نرى أن سقراط لم يحط من قدر نفسه، كما كان من الممكن أن يفعـــل الكـــثيرون غيره ممن يُسمون بالنبلاء، حين يجدون أنفسهم في مكانه وفي ظروفه. ولهذا فقد استمر يقول:

"لقـــد رأيت رجالا من ذوي الشهرة والعظمة، يتصرفون بأسلوب غريب حـــين يصـــدر عليهم الحكم بالموت: إذ يبدو أنهم يتخيلون أنهم سوف يعـــانون من أمور بشعة عند الموت، وأنهم سوف ينالون الحياة الأبدية إذا أعطيتموهم حق الحياة..." [١٩]

"لا تطلـــبوا مـــني الآن أن أفعل ما أعتبره أمرا مشينا للشرف.. عاريا عن التقوى.. ومجانبا للصواب.. خاصة الآن، بعد أن حوكمت بتهمة الإلحاد على يد ميليتوس". [١٩]

وفيما يلي ما يدل على إيمان سقراط بوحدانية الله تعالى، ذلك الإيمان الذي لم يهتز أبدا، إلا أنه كان يؤمن أيضا ببعض الشخصيات الربانية، التي كان يُضفي عليها بعض الصفات النبيلة، التي لا تنطبق على ما كان يُسمى بآلهـــة أهـــل أثينا. وقد كان يذكر هذه الشخصيات بنفس الأسلوب تماما الـــذي تُذكر به "الملائكة" في الأديان السماوية الأخرى. وعلى ذلك فإن إيمانه بالربانيين.. بما يعني الملائكة.. لم يكن يتناقض مع إيمانه بالله الواحد. لذلك حينما أراد في النهاية أن ينهي مسعاه، لم يستودعه أيدي آلهة أثينا.. ولكنه استودع مسعاه في أيدي أهل أثينا وفي يد الله تعالى، حيث قال:

"... وإليكم وإلى الله تعالى أستودع مسعاي..." [٢٠]

وحـــتى في أدق التفاصـــيل.. كان سقراط مماثلا لأي نبي آخر ذكره القـــرآن المجيد والكتب السماوية الأخرى. لقد أدان الانتحار، معتبرا إياه تطاولا على الله تعالى وذنبا جسيما، لأنه كان يعتبر أن الحياة هبة من الله ﷻ، وأنـــه سبحانه هو مالكها الوحيد. وقد تحدث في فايدو (Phaedo) طويـــلا وبإســـهاب ضد تشريع حق الانتحار، مستخدما في ذلك أقوى الدلائـــل، لأنه كان يعتبر الانتحار إثما لا يُغتفر. وفيما يلي يعلن سقراط حكمه في موضوع الانتحار:

"... قد تكون هناك حكمة في أن يُقال إن على الإنسان أن ينتظر، ولا يضع نهاية لحياته بنفسه إلى أن يدعوه الله إليه، كما يدعوني إليه الآن".[٢١]

لقد استمر خطابه إلى أن قوطع من كريتو (Crito)، فقد فهم سقراط مـــن إشاراته أنه يريد أن يقول شيئا، ولكنه تجاهله. كما تجاهل أيضا كل ما كان يريد أن يقوله عن لسان الشخص المكلف بإعطاء السم لسقراط، فقد ذكر ذلك الشخص أنه إذا استمر سقراط في الكلام طويلا، فسوف يُضـــعف هذا من قوة تأثير السم عليه، وقد يقتضي الأمر من سقراط أن يشرب السم مرتين أو ثلاث. غير أن سقراط لم يلق بالا لذلك، و لم يهتم بالمعاناة التي يكلفه إياها خطابه الطويل، وقال:

"فليقم بواجبه كما ينبغي، وليعطني السم مرتين أو ثلاث".

"والآن ســـوف أرد علـــيكم يا قضاتي (وهنا كان يستعمل لفظ القضاة مخاطـــبا أولئك الذين كانوا من المعجبين به، وكانوا يلتفون حوله خلال لحظاتـــه الأخيرة) وسوف أبين لكم أن الذي يعيش حياته كلها فيلسوفا حقيقيا مخلصا، يكون من حقه أن يبتهج حينما يكون على وشك الموت، فإنه يأمل بعد الموت أن يتلقى أعظم الخير في العالم الآخر".[٢٢]

وعلى هذا فقد استمر سقراط يُعَلم شعب أثينا الفلسفة الإلهية إلى أن وضع كأس السم على شفتيه. وحتى حينما كانت الحياة تنسل ببطء من بـــين ضلوعه، فقد ظل مستمرا في تأدية مهمته الربانية، طالما كانت لديه القدرة على الكلام، و لم يتوقف عن ذلك إلى أن أسكته الموت.

وهكـــذا جاءت النهاية لحياة واحد من عظماء أنبياء الله تعالى، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (حيث كان معاصرا لبوذا). وكمثل بوذا.. لم يُدَوّن سقراط أبدا صحائفه، ولكن قام معاصروه بتسجيلها، ثم تم تدوينها فيما بعد في شكل محاورات سقراط. وقد اتُّهم بوذا أيضا بالإلحاد، وذلك لأنه أنكر آلهة البراهمة.

لقـــد لخصـــت دائرة معارف تشامبرز (Chambers Encyclopaedia) أعظم خدمة قدمها سقراط للفلسفة في الكلمات التالية:

"بإنزال الفلسفة من السماء إلى حياة العامة من الناس (كما سبق أن قال سيســـرو ذلـــك)، فإن سقراط كان يقوم بنشر اتجاه جديد من أحدث الاتجاهات الفكرية في عصره، وذلك بأسلوب واضح وبنية صادقة".[٢٣]

"لم يكن سقراط يكترث للترف والنعيم، ولا حتى للأمور المريحة العادية، ولكنه لم يكن من النساك بحال من الأحوال".[٢٣]

وعن طبيعة الوحي الإلهي لسقراط.. يقول مؤلف المقالة التي اقتبسنا منها العبارات السابقة:

"هـــناك الكثير من النقاش حول "الإيماء الإلهي" (δαιμνιον) الذي كان ســـقراط كـــثيرا ما يتحدث عنه، على أنه صوت كان يصله من وراء الطبيعة، ويمنحه الهداية. وحسب ما قالـــه زينوفون (Xenophon).. كان الصوت يقول لـــه أن يفعل أو أن لا يفعل. وحسب ما قاله أفلاطون.. كـــان الصوت يضبط أفعاله فقط ولكنه لم يكن محرّضا قط. أما الكُتّاب المـــتأخرون، وخاصة في العهود المسيحية، فقد تكلموا عن ذلك الصوت على أنه روح شيطان، أو روح عبقرية، أو روح حارسة. ولا يوجد عن هذا الرأي أية مصداقية لدى أفلاطون أو زينوفون".[٢٣]

"... يـــبدو أنـــه كانـــت لديه بعض الإحساسات الحية، والتي اعتبرها تحذيرات سماوية، ومن الجائز كما يقول البعض أنه كان يعاني أحيانا من الهلوسة في أسماعه، كما يمكن أن يحدث أحيانا مع الشخص العاقل الذي يتمتع بصحة جيدة".[٢٣]

وهكذا حوّلوا الوحي الإلهي لسقراط ليكون مجرد هلوسة!

وفي الواقـــع لم يكـــن هناك أي تناقض في سقراط، وإذا كان هناك تناقض فلا بد أنه كان في عقل الكاتب، الذي يبدو أنه أراد أن يدافع عن سقراط، فقال إن هلوساته لم تكن كلها سيئة مثل أولئك المختلين نفسيا الذيـــن يعانون من خلل عقلي. فقد اعتبر الكاتب أن مثل هذه الهلوسات يمكن أن تصيب أحيانا الأشخاص العقلاء ذوي الصحة الجيدة أيضا، كما ظن أنها الحال مع سقراط.

يا لها من رحمة.. ويا له من تعاطف وشفقة بسقراط من بعض الكُتاب المـــتأخرين، الذين كانوا يثقون في سقراط.. ولكن لم تكن لديهم ثقة في إيمانه بالله تعالى. ومهما كانت تلك الملاحظة متعاطفة مع سقراط.. فإنها لا تضـــيف شرفا إلى عظمته، فهو لم يكن أبدا في حاجة إلى أية تبريرات. ألم يكـــن سوء الفهم هذا هو نفسه الذي لازم جميع الأنبياء من قبل ومن بعد ســـقراط؟ إن كـــلا منهم اتهمه قومه بالهلوسة، ولكن ربما ليس بالصورة المهذبـــة التي اتبعها كاتب المقالة المذكورة في حق سقراط. إن جميع أولئك الذين اتهموا الأنبياءَ كانوا يعلمون جيدا أن من يتهمونهم بالهلوسة والجنون لم يكونـــوا يعـــانون أبدا من سقم في العقل أو ضعف في الأخلاق.. فقد كـــانوا أكثر الناس حكمة في زمانهم، سليمي العقل أذكياء القلوب، ينظر إليهم مجتمعهم الذي نشأوا فيه باحترام وتبجيل منذ طفولتهم إلى أن بلغوا مبلغ الرجولة. ولم يحدث أبدا أن اتهمهم أحد.. قبل إعلانهم دعوى النبوة.. بالتصرفات التي يتبعها العرافون والمنجمون، ولا بأنهم يعانون من الهلوسة. إن الهلوســـات دائما ما تكون عشوائية، مفككة، متنافرة، ولا رابط بينها. والأصوات التي قد يسمعها البعض ممن يعانون من الهلوسة، قد تبدو لهم أنها مـــن الله تعالى، ولكن تلك الأصوات لا توحي إليهم أبدا بأية فلسفة، ولا بمنهج حياة يمكن أن يتبعه الآخرون ويسعدوا به. فلا منطق في ما يسمعون ولا في ما يقولون. فالهلوسات لا تثمر أية عقلانية!

إن الخلط بين النبوة والهلوسة ليس إلا محاولة مريضة ورخيصة للحط

من شأن الوحي الإلهي، فإن تجربة أنبياء الله ﷻ تختلف اختلافا جذريا. إذ تتميز تجارب الأنبياء بالحق والحكمة والعقلانية، بينما يمثل المجتمع المعادي الـــذي يواجهونه الخرافة والكذب والعقائد الباطلة. والرسالة التي يأتي بها الأنبياء تقوم دائما على أساس فاضل من الأخلاق. إنهم يتنفسون الحكمة، وزفـــراتهم الـــتَّقْوَى والـــورع. وهم يدافعون عن العقلانية، ويدعون إلى الفضيلة، والعدل، والاعتدال في كل أمر، والتسامح المتبادل، والإحسان، والصـــبر، والخدمة، والتضحية. فهل هذه هي الرسالة النبوية التي يتلقونها خلال أشد لحظات حياتهم جنونا وهلوسة؟ إن كانت هذه حقا هلوسة.. فأعظم بها من هلوسة!! إن المرء يتمنى لو أن أولئك الذين يتهمون الأنبياء بالهلوســـة تذكـــروا تجاربهم هم الخاصة التي يعانون فيها من الهلوسة أثناء تعرضـــهم مـــثلا لحالة شديدة من الحمّى العَفَنية Septic Fever أو حُمى التـــيفود. فهـــل يذكرون أنهم تلقوا أثناء تلك الهلوسات مناهج حكيمة للحـــياة، حيـــنما كانوا في غيبوبة مؤقتة عن عقولهم، وهل استطاعوا أن ينقلوا إلى الإنسانية رسالة ظلت محل اهتمام الناس لآجال طويلة؟

إن العقلانية والهلوسة لا تجتمعان في العقول السليمة. لكَم كنا نتمنى لو أن من يتَّهِم سقراط بالهلوسة قد قدم لنا شرحا وافيا من واقع تجربته هو الشخصية، فهل حدث لأحد من الحكماء أن تعلم فلسفة صحيحة متميزة خـــلال الفترات التي يكون قد تعرض فيها لنوبات من الهلوسة؟ وكم كنا نـــتمنى لـــو أن المؤلـــف قد تذكر أن كل الحكمة، وكل الفضيلة، وكل العقلانية، وكل الإيمان.. الذي أبداه سقراط، كل ذلك قد تعلمه سقراط مـــن تلـــك الأصوات التي يسمونها "هلوسة"! فإذا رفضنا إيمانه بالوحي الإلهي باعتبار أنه قائم على الهلوسة.. فلا بد أن نرفض كل فلسفاته وكل حكمـــته في الحـــياة عـــلى نفس الاعتبار، فإنه لا يمكن أن ينفصل عن عقلانيته.

إنـــنا نقبل سقراط بكليته.. بجميع نبل شخصيته، ونبل رؤيته، ونبل

حـــياته الـــتي عاشها. فإن الهلوسة لا يمكن أن تخلق مثل أولئك الرجال. فالســـلام عليه يوم وُلد، والسلام عليه في حياته، والسلام عليه يوم مات راضيا مبتسما، بينما الحشد من المعجبين به كانوا ينتحبون بمرارة ويبكون حوـــله في نشيج أليم. إن أثينا لم تر بتاتا روحا تصعد إلى بارئها أنبل من تلك التي كانت لسقراط.

رضي الله عنه، وأمطره بوابل من أخص رحماته وبركاته. ولكن الويل كل الويل لقتلته، فإن أثينا لن ترى أبدا من يماثله مرة أخرى!

المراجـــــــع

1. *The New Encyclopaedia Britannica.* Vol. 24, 15th ed.
2. *The New Encyclopaedia Britannica.* Vol. 25, 15th ed.
3. GUTHRIE, W.K.C. (1950) *The Greek Philosophers.* Methuen & Co, p.72
4. GUTHRIE, W.K.C. (1950) *The Greek Philosophers.* Methuen & Co, p.79
5. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.200
6. GRAYLING, A.C. (1995) *Philosophy - A Guide Through The Subject.* Oxford University Press, Oxford, p.360
7. GRAYLING, A.C. (1995) *Philosophy - A Guide Through The Subject.* Oxford University Press, Oxford, p.364
8. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.157
9. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.167
10. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.168
11. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.169
12. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, pp.170-171
13. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.* Cambridge University Press, Cambridge, p.173
14. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher.*

Cambridge University Press, Cambridge, p.174
15. VLASTOS, G. (1991) *Socrates, Ironist and Moral Philosopher*. Cambridge University Press, Cambridge, p.175
16. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works*. Anchor Press, New York p. 459
17. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works*. Anchor Press, New York pp. 460-461
18. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works*. Anchor Press, New York p. 462
19. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works*. Anchor Press, New York p. 464
20. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works*. Anchor Press, New York pp. 464-465
21. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works*. Anchor Press, New York pp. 493-494
22. JOWETT, B. (1989) *Plato, The Republic And Other Works*. Anchor Press, New York p. 495
23. *Chambers Encyclopaedia* (1970) New Revised Edition Volume XII Roskilde-Spahi, International Learning Systems Corporation Limited, London, p.673